ROWAQ MAYSALOON رواق ميسلون

Political and Cultural Studies

دراسات سياسية وثقافية

مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة؛ هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد:

- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو:

النجاح والإخفاق في الثورة

■ محمد عمر كرداس:

الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد:

إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

مقالات رأي

الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

محمد عمر كرداس

ثورات الشعوب السورية: خرافات سياسية و«سلفيات» رومانسية راسخة

عبد الله أمين الحلاق

مهمتان مستحيلتان، ولكن!

شوكت غرزالدين

لوحة للفنان سامر إسماعيل (انتظار) 2018

ثورات الشعوب السورية: خرافات سياسية و«سلفيات» رومانسية راسخة

عبد الله أمين الحلاق

عبد الله أمين الحلاق

كاتب وباحث سوري مقيم في إيطاليا، من مواليد 1982. عمل وتعاون مع عدد من الصحف والدوريات اللبنانية والعربية (الحياة- السفير- المستقبل- النهار-مصر العربية)، وفي عدد من مراكز الأبحاث العربية والأوروبية. صدر له كتابان باللغة العربية وكتاب باللغة الإيطالية. يدْرس العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة بادوفا/ إيطاليا.

قبل الدخول في صلب الحديث، ومحاولات الإجابة عن الأسئلة المطروحة في ملف «**الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها**»، سيقدّم كاتب هذه المقالة ملاحظتين تحملان دلالة وظيفية، وربما تصلحان لأن تكونا مدخلًا لمساهمته في هذا الملف.

تتعلق الملاحظة الأولى باستحالة الإحاطة بكافة الأسباب والعوامل التي قادت إلى هذه الهزيمة، وإلى هذه النتيجة المأسوية لثورة عام 2011 وما تلاها؛ وعليه، ونظرًا لما كُتب سابقًا حول هذا الموضوع في عدة منابر، سواء أكانت كتابات جادة أو كتابات من قبيل «رفع العتب»، واستعراض ما بات يُعرف اليوم بـ«المراجعة»، فإن الكاتب يركز في هذه المقالة على الأسباب التي يرى أنها ساهمت بقوة في تعبيد الطريق نحو الهزيمة، وكان التطرق إليها وتناولها قليلًا جدًا في الكتابات السورية، من دون أن يدّعي الأسبقية في كل من التطرق والتناول.

الملاحظة الثانية تتناول سؤال الـ«ما بعد» و«إلى أين يجب علينا أن نتوجه» و«الاستراتيجيات الجديدة»، وهي أسئلة من المبكر تناولها والحديث عنها، أقله إلى أن يكون هناك اعتراف من جهة معظم «النُخَب» السياسية والثقافية والفكرية بالهزيمة. أضف أن وضع «وصفات» و«روشيتات» تحمل أفكارًا محددة أو توصيات، يبدو عملًا يؤمن بالطوبى أكثر من إيمانه بتحليل وفهم الواقع العياني بالغ التعقيد والتركيب اليوم، والذي يتطلب تعقيده واهتراؤه، كما القاع الذي وصلت إليه البلاد، التقاط الأنفاس والتفكير الهادئ والمطوّل بما جرى ويجري، قبل الدعوة إلى حلول وخطط، وقبل إعادة إطلاق عجَلة العمل الفكري والثقافي (والسياسي) من أجل الـ«ما بعد»، حتى لا يكون هذا العمل ميكانيكيًا أو آليًا مكررًا، لا أكثر ولا أقل، وأرجو أن يتسع صدر الأصدقاء في «رواق ميسلون» لهذا التناول النقدي لسؤالهم الأخير في الورقة المرجعية المتصلة بالملف.

خصوصية سوريّة ومشرقيّة

كانت الثورة في سورية اختبارًا حقيقيًا للشكل الذي قام عليه الكيان السوري نفسه منذ تأسيسه، مرورًا باستقلاله ووصولًا إلى عام 2011، وقد ساءَلَت إمكان استمرار سورية نفسها على الشكل ذاته. يفترض الكاتب أن بعض عوامل وأسباب هزيمة الثورة كان موجودًا في رحمها هي ذاتها، ومنذ البداية، وفي صلب حاملها الاجتماعي، من دون أن ينال هذا من مشروعيتها ولا من ضرورة قيامها وتأييدها ودعمها، وربما لو تأخر انفجارها إلى زمن لاحق، لكانت الضريبة أكبر بكثير من الضريبة الباهظة التي دُفعت فيها. هذه العوامل والأسباب يمكن تلخيصها بقول إن الثورة قامت في بلد لم يتكوّن فيه الشعب كوحدة سياسية، ولم تُكوَّن فيه هوية وطنية، ومنذ ما قبل وصول النظام الحالي إلى السلطة.

هذا الكلام ليس لقول إن السوريين (والعراقيين واللبنانيين) مجبولون على البقاء الأبدي كحالات ما قبل وطنية وضمن تشكيلات ما دون الشعب، من حيث غلَبة الأهلي والديني على الوطني والسياسي، أو من حيث غلَبة «نظام القرابة» بالمعنى الذي صاغه الراحل **ياسين الحافظ** في كتابه «الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة»، وتحدث فيه عن «الفَوات التاريخي لشعوب ومجتمعات حمَلت معها الهزيمة إلى المعركة، ولم تأتِها الهزيمة من مؤامرات خارجية». بل هو كلام يقع في عمق السياسة وتحولات البلد وما لحق به. فالخمسينيات التي كانت وما تزال مدعاة احتفاء وتذكُّر ونوستالجيا من طرف كثيرين، بوصفها خمسينيات الديمقراطية والبرلمان والصحافة والنقابات، كانت فترة قصيرة جدًا ولم تكن كافية لتبلور ولا حتى لتشكُّل ما يمكن تسميته بـ«الشعب السوري»، بل حيزًا زمانيًا لـ«مشروع شعب»، وهو المشروع الذي لم يكتمل.

كانت «الجماعة» البشرية التي وجدت في ما صار يسمى «سورية»، إحدى الجماعات في منطقة خرجت من سلطة الامبراطورية العثمانية إلى سلطات الانتداب التي شكّلت الدول، وحملت تلك الجماعة معها الإرث العثماني على الصعيد الثقافي والاجتماعي (والسياسي، كما تبدى لاحقًا). بمعنى آخر، كان مشرق ما بعد العثمانية مشرقًا مرتبكًا وقلِقًا، دخل للمرة الأولى عصر الدولة والحدود السياسية، وكانت سورية، المستقلة حديثًا، بلَدًا لم يحسِم هويته وبقي مشدودًا، بشكل كبير، في فترة الديمقراطية البرلمانية القصيرة وفي فترات الانقلابات العسكرية، إلى هوية عابرة لحدوده الهشة أساسًا وحديثة التكوّن.

كان للانقلابات العسكرية، ومنذ انقلاب **حسني الزعيم** (1949)، الشأن الأبرز في قطع السيرورة وقتل احتمالات تشكل «وطنية سورية» تستند إلى وجود «شعب سوري» بالمعنى الحديث لكلمة شعب. ولا يمكن إلا لعقلٍ طفليّ التفكير أو مراهقٍ سياسيًا، أن يصدّق وأن يسوّق بالقول إن سنوات قليلة من الصحافة والبرلمان والأحزاب، كانت كافية لإنجاز تلك المهمة التاريخية وضبط الحالة الهوياتية والعصبيات وتغوّل «نظام القرابة» وغيرها من تركات السلطنة العثمانية.

الأسديّة و«الجديد» الذي حمَلته

من حيث المبدأ، لم يكن انقلاب عام 1963 الذي نفذه حزب البعث، ولا انقلاب عام 1970 الذي نفذه **حافظ الأسد** ودشّن به مرحلةً تستمر حتى اليوم، بالأمر الجديد والطارئ في مسيرة

بلـد عـرف الانقلابـات وحُكـم العسـكر قبـل ذلـك. لكنـه كان «تتويجًـا» لمسـار الانقلابـات السـابقة بقـدر مـا كان إعلانًـا للطـلاق النهائـي مـع تجربـة «الدولـة الوطنيـة» التـي ولـدت بعـد الاسـتقلال، وللقطيعـة مـع احتمـالات تطـور سـورية إلـى وطـن، والجماعـات الموجـودة فيهـا إلـى شـعب. وكان مختلفًـا أيضًـا عـن أقرانـه السـابقين مـن العسـكر مـن ناحيـة آليـة اشـتغاله وتطويعـه القـوى الحيـة داخـل المجتمـع السـوري (وليـس الشـعب السـوري)، ومـن حيـث سـماته، وهـي سـمات تضمنـت، مـن بيـن مـا تضمنتـه، السّـمة الطائفيـة، فـي بلـد تبجّـل شـرائح منـه العصبيـات العائليـة والطائفيـة والدينيـة، كمـا تضمنـت، أيضًـا، الشـمولية والقبضـة الفولاذيـة الآتيـة والمسـتوردة مـن مجتمعـات غيـر سـورية وغيـر عربيـة.

يبـدو نظـام القرابـة هنـا عامـلًا أساسـيًا لفهـم طبيعـة النظـام السـوري بعـد 1970 وصـولًا إلـى اليـوم، بالتزامـن مـع تنـاول أدواتـه وآليـات سـيطرته وتدميـره الفعاليـات والقـوى السياسـية الضعيفـة والمكشـوفة الظهـر. ففـي مقاربـة ممتـازة لـه، يدعـو الكاتـب اللبنانـي **حـازم صاغيـة** إلـى ضـرورة التنبـه للفـوارق بيـن الأنظمـة العائليـة فـي المنطقـة وبيـن التوتاليتاريـات التـي عرفتهـا أوروبـا فـي القـرن الماضـي، وخصوصًـا النازيـة والفاشـية والشـيوعية، مـن دون إغفـال اشـتراك التوتاليتاريـات هنـاك والأنظمـة القرابيـة هنـا بملامـح وآليـات متشـابهة فـي السـيطرة.

فبمجـرد الحديـث عـن **صـدّام حسـين** وسـلطته فـي العـراق، «تتدفّـق تلقائيًـا أسـماء الأبنـاء والإخـوة وأبنـاء العـمّ، لدرجـة أن الموديـل البعثـيّ يبقـى، مـن دون هـذه الأسـماء، أشـبه بلغـزٍ يسـتعصي علـى الحـلّ. لكـن هـل هنـاك، مثـلًا، فـي المقابـل، مـن يعـرف مـا إذا كان لـدى **هتلـر** أخ؟ ومـا إذا كان لـدى **سـتالين** ابـن عـمّ، وفـي هـذه الحـال مـا اسـمه؟ بالطبـع يسـتدعي الجـواب عـن هـذه الأسـئلة درجـة مـن الجهـد والمتابعـة لا يحتـاج إليهمـا دارس السياسـة العراقيّـة. وإذا مـا اسـتطاع مَـن يـدرس النازيّـة، بعـد مشـقّة، العثـور علـى أسـماء أقـارب **هتلـر**، فـإن معرفتـه هـذه لـن تُوسّـع فهمه النظـامَ النـازيّ قيـد أنملـة. ولأنّ مسـألة كهـذه لـم تكـن أساسـيّة فـي ألمانيـا، ولا فـي روسـيّا، لـم ينتبـه كثيـرون ممـن تأثّـروا بدراسـة التوتاليتاريّـات الأوروبيّـة قبـل أن يتعاطـوا مـع التركيبـة العراقيّـة إلـى موقـع النظـام القرابـيّ والـدور السياسـيّ المـوكل إلـى الـدم بوصفـه أبـرز مـا يفـرّق التوتاليتاريّـات غيـر الأوروبيّـة عـن تلـك الأوروبيّـة»[1].

ينطبـق الأمـر عينـه، علـى مـا هـو واضـح، علـى النظـام فـي سـورية لناحيـة التشـابهات بينـه وبيـن شـقيقه التـوأم فـي العـراق، ولناحيـة اختلافاتـه، هـو الآخـر، عـن توتاليتاريـات أوروبـا، حيـث معرفـة دارسـي التوتاليتاريـات فـي العالـم بأسـماء العائـلات النافـذة والحاكمـة فـي سـورية، كـ**الأسـد** ومخلـوف والأخرس وشـاليش، أكبـر بكثيـر مـن معرفتهـم باسـم والـد **هتلـر** وأشـقاء **موسـوليني** وعمّـات وخـالات **ليونيـد بريجينيـف**.

بهـذا المعنـى، كانـت «سياسـة» **حافـظ الأسـد**، وفـي السـبعينيات والثمانينيـات خصوصًـا، خيـر معبّـر عـن هـذه الثنائيـة. فقـد «اجتـرحَ»، بالتدريـج وليـس دفعـة واحـدة، آليـات جديـدة للسـيطرة فـي سـورية، مسـتوحاة مـن أنظمـة شـمولية عديـدة عرفهـا العالـم، مـن خـلال منظمـات الطلائـع والشـبيبة والجمعيـات والاتحـادات التـي صـارت تنطـق كلهـا باسـم الحـزب وقائـده، بعـد أن دمّـر هـذا الأخيـر النقابـات وأنهـى كل احتمـال لتحدّيهـا لـه. كان نظـام الأسـد بوجهـه هـذا، نظامًـا شـموليًا، مـن دون أن تكـون الشـمولية سـمة وحيـدة مـن سـماته، فـي الوقـت الـذي لـم يكـفّ أيضًـا عـن اسـتدعاء الورقتيـن الطائفيـة والدينيـة، مـن

(1) حازم صاغية، قضايا قاتلة، (بيروت: دار الجديد، 2012)، ص 7.

خلال استقطابه لشرائح ليست قليلة من العلويين، وتقديم امتيازات مادية ومعنوية لهم في الوظائف في المدن، وفي الجيش والمخابرات، وهي ورقة من بين أوراق كثيرة لعب عليها لتثبيت حكمه، وتقع على الضد تمامًا من شعاراته القومية والعروبية العابرة لحدود سورية عمومًا، ولمكوناتها الأهلية خصوصًا. كذلك هي الحال في صدامه مع الإسلاميين في حماه عام 1982، وهو صدام لم ينطلق من «علمانيته» المفترضة بقدر ما كان «حربًا» على جماعة تحدّت سلطته وأقلقتها وهزّت، موقّتًا، ما كان يعمل عليه من «استقرار».

نظام القرابة المكبوت

وسط تلك الأجواء كلها والتي سبق ذكرها، وغيرها أيضًا، كانت السلطة هي المتحكمة بالجماعات السورية، أو بتعبير أدق: بالشعوب السورية، من خلال صهرها تلك الشعوب في قِدر واحد، ثم تبريد المنتَج المنصهر ذاك ووضعه في قالب بلا معنى وبلا أي مدلول سياسي هو «الاستقرار»، أو جَبْلِه في تمثال مشوه الملامح تحت مسمى «الشعب السوري»، تبعًا لتوظيف السلطة لمسمّى «الشعب»، داخليًا وخارجيًا.

كُبتَت التناقضات الموجودة بين الجماعات كلها، وداخل الجماعة الأهلية الواحدة، ومُنعت من التعبير عن نفسها. لا بل وقام النظام بتغذية تلك التناقضات واللعب عليها في أحايين كثيرة، بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن خلال الكبت والقفر عن الواقع وتغييبه، التقى النظام مع كثير من «القوى» السياسية المعارضة له، والتي حملت بدورها شعارات عابرة لحدود سورية مثل «القومية العربية» و«الوحدة» و«الإسلام» و«الاشتراكية العالمية»، من دون أن يكون الداخل السوري حاضرًا في خطاب تلك المعارضات إلا على سبيل التعبئة وانتظار «التغيير» و«إسقاط النظام» والعزف على وتر «الشعب» و«الجماهير»، في ليٍّ منها لعنق الواقع واستمرار الإغلاق عليه داخل القمقم.

لكن النظام التقى أيضًا مع المجتمع نفسه، أو مع «نظام القرابة الأولي» المنتشر والنافذ عميقًا ضمن شرائح واسعة من ذلك المجتمع، وهو نظام قرابي رث وقروسطوي، تتمكن منه «مفاهيم» ومصطلحات الشرف والرجولة وغسل العار والصمود والمواجهة، كما تمجيد الأب والعائلة والطائفة والدين وكل السلطات البطريركية والذكورية التي يمكن أن توجد في مجتمع من المجتمعات القديمة. ننحاز هنا إلى مقاربة غير سياسوية، تعي دور النظام في عهد الأسدين وإغلاقه البلد على احتمالات التطور البطيء وعلى إمكانات التعبير عما هو إيجابي وسلبي في المجتمع، من دون أن تمجد «الشعب العظيم» و«الوطن الرائع» و«فسيفسائه» وغير ذلك من كلام وزَجَل درجت عليه جلّ المعارضات منذ 2011 وحتى اليوم، وبما يليق بأغاني الرحابنة أكثر منه بفهم هادئ ودقيق للسياسة والمجتمع. كما ننحاز إلى مقاربة غير ثقافوية لا تعفي الثقافة القديمة الراسخة، دينًا وطوائف وإثنيات وعشائر وعائلات وأنظمة بطريركية، من دورها في رفد نظام القرابة الذي عززه النظام سلطويًا، والالتقاء والتشابه معه في مفاصل كثيرة، وهو ما تبدى واضحًا بعد ثورة عام 2011.

ثورات الشعوب السورية

بعد عقود من ممارسات سلطة راكمت جميع أسباب الانفجار والانتفاضة ضدها، وضمن أجواء ثورات وانتفاضات عربية نجحت في إسقاط أنظمة دكتاتورية في المنطقة، انفجر «المارد» المكبوت

لعقـود وخـرج مـن القمقـم، وصـارت مسـألة إعادتـه إليـه، مجـددًا، ضربًـا مـن ضـروب المسـتحيل. حملـت المرحلـة السـلمية للثـورة، والتـي لـم تسـتمر سـوى شـهور قليلـة، أحلامًـا كبيـرة وشـعارات وآمـالًا بمسـتقبل أفضـل، كمـا حملـت أوهامًـا ليسـت بالقليلـة، وربمـا كان فـي رأس تلـك الأوهـام أن «الشـعب السـوري واحـد»، وأنـه «يريـد إسـقاط النظـام»، أضـف إليهـا مقولـة «لا سـنية ولا علويـة.. سـورية وحـدة وطنيـة».

لـم يكـن شـعار «الشـعب يريـد إسـقاط النظـام» شـعارًا صحيحًـا سياسـيًا، طالمـا أن كتـلًا بشـرية ضخمـة لـم تدخـل فـي الثـورة وفضلـت البقـاء فـي صـف النظـام، إلا إذا كان المتظاهـرون فقـط هـم الشـعب. أمـا علـى صعيـد «الشـعب الواحـد» و«لا سـنية ولا علويـة»، فالواقـع أنهـا كانـت تحمـل مـن المخـاوف ومحـاولات إقنـاع الـذات بالنقيـض لمـا هـو كامـن، أكثـر مـن كونهـا هتافـات وشـعارات حقيقيـة تعبـر عـن واقـع الحـال فـي سـورية، علـى الرغـم مـن أن أي طامـح إلـى مسـتقبل أفضـل للبلـد لا يمكنـه إلا أن يتمنـى تلـك الشـعارات ويتبناهـا، أخلاقيًـا علـى الأقـل.

كانـت الأشـهر القليلـة التـي شـهدت تظاهـرات سـلمية فـي نقـاط ومناطـق كثيـرة فـي البـلاد، وقبـل الانتقـال إلـى الطـور المسـلح[2] ودخـول دول الإقليـم والمـد الدينـي المنظـم والممـول علـى خـط الصـراع، بضعـة أشـهر أقـرب إلـى الخمسـينيات السـورية الشـهيرة والذائعـة الصيـت، والتـي ورد ذكرهـا آنفًـا فـي هـذه المقالـة. بمعنـى أنهـا حملـت، أو أعـادت إحيـاء احتمـالات خلـق الشـعب بالمعنـى السياسـي المتعـارف عليـه، علـى عكـس المقـولات التـي تجـزم بشـعب ناجـز عـام 2011، «عـارف طريقـه» و«لا يأتيـه الباطـل». انتهـت تلـك الاحتمـالات مجـددًا، وفـي زمـن مختلـف وبـأدوات مختلفـة.

يصعـب القبـول بوجـود توافـق أسـطوري فـي صفـوف الفئـات والشـرائح الثائـرة أو المنتفضـة، أو المعترضـة علـى النظـام، مـن حيـث الدوافـع للثـورة وفعـل الاحتجـاج، ومـن حيـث الهـدف المنشـود مـن وراء هـذا الأخيـر. كانـت الثـورة ثـورات، بقـدر مـا كان «الشـعب» المتخيَّـل جماعـات، وهـي جماعـات قضـى حكـم العسـكر، بعـد الاسـتقلال، علـى صيرورتهـا وكسَـرَ أرجلهـا التـي كانـت تسـير بتثاقـل علـى طريـق التحـول الطويـل إلـى «شـعب»، كمـا قضـت عوامـل كثيـرة عـام 2011 علـى هـذه الاحتماليـة، وهـي عوامـل يتصدرهـا تعامـل النظـام مـع الثـورة وعـدم قبولـه بـأي تنـازل تبعًـا لبنيتـه وتركيبتـه أساسًـا[3]، ولا تنتهـي بتفاهـة وانحطـاط المؤسسـات الرسـمية للمعارضـة التـي تصـدرت العمـل «السياسـي» فـي الداخـل والخـارج وفـي العلاقـة مـع المجتمـع الدولـي، وبيـن هذيـن تقـع عوامـل كثيـرة أخـرى يضيـق المجـال بتناولهـا.

على سبيل الخاتمة

كانـت ثـورة/ ثـورات عـام 2011 فـي سـورية كاشـفة لأكثـر مـن زيـف، وللكثيـر مـن الخرافـات المقيمـة فـي عمـق الثقافـة السياسـية السـورية، ومـن بينهـا مسـائل «الشـعب» و«الوحـدة» ممـا اهتمـت هـذه المقالـة بـه بشـكل رئيـس. وقـد أعـادت، وإن بخجـل ورغمًـا عنهـا، طـرح قضايـا الديـن والأكثريـة والأقليـات

(2) فـي مـا يتعلـق بهـذا الموضـوع، تمكـن مراجعـة المقالـة المهمـة لياسـين الحـاج صالـح بعنـوان «الثـورة السـورية وخطـر الوضـع الطبيعـي». وهـي مُضمَّنـة فـي كتابـه «الثـورة المسـتحيلة: الثـورة، الحـرب الأهليـة، الحـرب العامـة فـي سـورية»، (المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشـر، 2017)، ص 53–61.

(3) جورج طرابيشي، سورية: النظام من الإصلاح إلى الإلغاء، على الرابط: https://2u.pw/tJunnV /

مما تترفع النخب السياسية والثقافية عن تناوله، وتهرب منه نحو «الوطنية» و«الديمقراطية» كنتيجة ميكانيكية للتغيير المنشود. أعادت تلك الثورات، أيضًا، طرح العلاقة العضوية بين الإسلام وأسباب قابليته/ عدم قابليته للتحول إلى دين عنفي، «وليس المقصود هنا نقد تنظيمات وفصائل الإسلام السياسي، ففي هذا سال حبرٌ كثير، بل المقصود هو أن الإسلام ذاته لم يواجَه برفض جذري للبوسه لباس أيديولوجيا سياسية تملك الحقيقة المطلقة والنهائية، وتقدم نفسها على أنها الحل لجميع المشكلات»[4]، وغير ذلك مما قذفته تلك الثورات في وجه السوريين وتركتهم يتخبطون باحثين عن هوية، كما هي حال كيانهم الذي ولد قبل قرن من الزمن.

هل هي دعوة لليأس؟ قطعًا لا. هي ورقة تحاول السجال مع تيار ثقافي وسياسي سوري مكتفٍ بذاته، كسول فكريًا وبائس معرفيًا، يقيم في اليقين والإجابات الجاهزة والخرافات التي قد يتداعى عالمه القديم إن هو اكتشف زيفها، أو قدم تنازلًا عنها. عالم الوطنيات الناجزة والأوطان النهائية والشعوب العظيمة هو عالم القرون الوسطى والسلطات البطريركية بامتياز. مع ذلك، ثمة تيار ثقافي سوري يولد اليوم بصعوبة ويشق طريقه إلى الحياة ببطء وحذر، وهو لن يكف عن إقلاق راحة اليقينيين وخرافاتهم، ولا عن مواجهة العالم السوري القروسطوي الكنسي والقول: «لكنها تدور».

المراجع:

1. الحاج صالح، ياسين. الثورة المستحيلة: الثورة، الحرب الأهلية، الحرب العامة في سورية، (د. م: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017).
2. صاغية، حازم. قضايا قاتلة، (بيروت: دار الجديد، 2012).

(4) حسام عيتاني. «كيف فاتتنا الأسئلة الكبرى. موقع «درج». https://daraj.media/2415/

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909